

د. أحمد محمد كنعان

الطبيعة (Nature): لفظ مشتق من المطبع. وطَبَعُ الشيءُ أي خُلُقُه. وطبيعته أي خلقته التي خلق عليها من حيث شكله ولوئنه وسلوكه وبقية أوصافه، ومن هنا يأتي المطبع بمعنى المختم وهو التأثير في الشيء ليتشكل على هيئة معينة، والمطبيعي هو غير الصنعي، وإذا أطلق اسم الطبيعة قصد به كل ما هو موجود في هذا الكون من مخلوقات الله - عز وجل - . وعلم الطبيعة هو العلم الذي يبحث في طبائع الأشياء وما اختصت به، والمطبائع الأربع عند الأقدمين هي الحرارة والبرودة والمرطوبة والميسورة.

١- الطبيعة والسنن الإلهية

لقد جعل الله - عز وجل - لكل مخلوق من مخلوقاته طبيعته المخصصة به، وقدر لكل منها مجموعة من السنن (القوانين) التي تميزه عن غيره من المخلوقات، وهذه السنن لا يمكن تغييرها ولما تعديله كما قال تعالى: (فَلَن تَجِدَ لِسُنْتَ الْمَلِهِ تَبَدِّلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنْتَ الْمَلِهِ تَحْوِيلًا) (فاطر: ٤٣).

فمن طبيعة الماء مثلاً أنه يتجمد عند درجة الصفر المئوية، ويتبخر عند (٠٠) بينما طبيعة الحديد أنه يتمدد بالحرارة ويقلص بالبرودة؛ ومن طبيعة الإنسان أنه يتنفس المهواء ويموت إذا ما غرق بالماء، بينما تعيش الأسمدة بالماء وتموت إذا ما خرجت إلى الماء؛

والملحق لما يستطيع الفكاك عن طبيعته التي خلقه الله عليها، ولا يستطيع الملخص من إسرار السنن التي تحكم هذه الطبيعة، وإذا ما

تغيرت طبيعة الشيء فهذا يعني أن سننًّا أخرى دخلت فيها، فالماء مثلاً إذا مزج ببعض المسوائل كالغليسيرين (Glycerin) لم يعد يتجمد عند الصفر ولم يعد يتبخّر عند درجة المائة، ويفيدنا فهم طبيعة المخلوقات على هذه الصورة في عدة أمور:

* فما دام لكل مخلوق طبيعته التي لا تنفك عنه فينبغي علينا أن ندرك هذه الطبيعة والسنن التي تحكمها، لكي نستطيع تسخير هذا المخلوق تسخيراً مجدِّيًّا، وهكذا فإننا عندما عرفنا السنن التي تحكم الماء أصبحنا قادرين على تسخيره في خدمتنا، وكذلك الحديد، وكذلك سائر المخلوقات.

* بما أنه لا يمكن تغيير ولا تعديل السنن التي قدرها الله - عز وجل - للمخلوقات، فإن علينا توجيه اهتمامنا لكشف هذه السنن لا إلى تغييرها أو تعديلها.

* إن عدم القدرة على تغيير السنن لا يعني العجز أمام طبائع الأشياء، بل يمكن الاستفادة من معارضه بعض السنن لبعض، أو تآزر بعض السنن مع بعض، من أجل الحصول على مزايا جديدة لم تكن موجودة من قبل، ومثال ذلك تآزر الغليسيرين مع الماء لتعديل طبيعة الماء كما ذكرنا آنفاً، ودوران المركبات المضائبة حول الأرض بمعارضة سنة المقوية المطردة لسنة الجاذبية الأرضية وبهذا تتمكن المركبات من الدوران حول الأرض لسنوات طويلة بلا محركات ولها قوتها، ومن ذلك أيضًا مدافعة سنة المرض بسنة المتداوى. وهكذا.

لقد كرم الله - عز وجل - الإنسان فاختاره من بين سائر المخلوقات ليكون الخليفة في خلقه، وسخر له كل المخلوقات الأخرى ليقوم بهذه المهمة الجليلة: (اللَّهُ الَّذِي سَخَرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ إِلَيْكُمْ فَيَهُ بِأَمْرِهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكِرُونَ * وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لَئِنْ قَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ) المجاشية 12،13. وتسخير المخلوقات للإنسان لا يعني امتنالها لأمره من غير جهد يبذله، بل لا بد للإنسان أن يبذل المجهد الكافي لمعرفة المسنن التي تحكم طبائع المخلوقات، وأن يدرك كيفية عمل هذه المسنن، وأن يعيده لها المشروط المازمة لكي تفعل فعلها، فيستفيد من خصائصها ويسخرها في خدمته.

علمًا بأن المقدرة على اكتشاف السنن الإلهية وتسخيرها ليس حكرًا على المؤمنين وحدهم، بل هو باب مفتوح للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، كما قال تعالى : (كُلُّا نَمِدُهُ لَأَءِ وَهُوَ لَأَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءَ رَبِّكَ مَحْظُورًا) الإسراء 20

3- قهر الطبيعة

هو تعبير يستخدم! أو ما ذرّى إصرارهم على ذلك؟ من قبل بعض المفكرين والعلماء وال فلاسفة والملحدين الذين ينكرون أن الله - عز وجل - هو خالق الطبيعة، وأنه هو الذي سخرها للإنسان، فهو لاء بإنكارهم للخالق يتصورون أنفسهم في مواجهة مباشرة مع الطبيعة، ويزرون أنها تتحداهم من خلال سننها الصارمة ولهمذا يتصورون أنهم كلما اكتشفوا شيئاً من سنن الطبيعة فإنهم يكونون قد قهروها وحققاوا المانتصار عليها(؟) وهذا اعتقاد ظاهر المفساد، لأن الله - عز وجل - الذي خلق الطبيعة لم يجعلها عصيّة على البشر، بل سخرها لهم كما بينا آنفاً.

ومن ثم فلا يجوز شرعاً استعمال مصطلح (قهر الطبيعة) لأنه يتناهى مع الاعتراف لله - تعالى - بفضله علينا إذ سخر لنا كل ما في هذا الموجود! ولقد كان الفيلسوف الهولندي اسبينوزا محققًا وكان أكثر وهي من هؤلاء الملحدين حين قال: (إن حرية الفعل لا تقوم في

المتحرر من الجبرية التي تسود المطبيعة بل في إدراك الإنسان لعبوديته وقبوله لما يجري، فالمسألة إذن ليست مسألة صراع وتحدٍ وقهر بين الإنسان والمطبيعة كما يتوهم الملحدون المضالون.

وحري بالإنسان أن يشكر الله - عز وجل - كلما وفقه لاكتشاف شيء من سنن الطبيعة التي لم تخلق أصلًا إلّا من أجله والتي أخبرنا الله تعالى - أنه هو الذي سوّف يسهل لنا أمر اكتشافها: (سُنُّ رِيَهُمْ عَلَيْهَا إِتَّنَّا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ⁵³ أَوَلَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فصلت 53، فلا يظنن إنسان أنه قادر على اكتشاف شيء من أسرار هذا الوجود إلّا أن يشاء الله - عز وجل.

4- المطبيعة مخلوقة لـ خالقة

ومن الأخطاء الشائعة أيضًا بين كثيرون من الكتاب والمفكرين وال فلاسفة أنهم ينسبون الأفعال للطبيعة وبخاصة منها المف العاد التي تعبّر عن المخلق، فيقولون مثلًا: إن المطبيعة تخلق أصنافاً عديدة من النباتات! أو يقولون: إن المطبيعة جعلت الإنسان في قمة الكائنات الحية! ونحو ذلك من التعبيرات التي تضفي على المطبيعة بعض الصفات الإلهية، وهذا شرك لا شك فيه، فالطبيعة بكل ما فيها إنما هي مخلوقة من قبل الله - عز وجل - والمطبيعة لا تقدر على فعل شيء إلّا بأمر الله - عز وجل - فما بالك بعملية المخلق؟ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ مَثُلُّ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُوهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضُرُّعَفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ)

الحج 73

العودة إلى المطبيعة

قلنا إن الله - عز وجل - قد خلق المخلوقات المختلفة، وقدر لكل منها سننًا لتسير على منوالها، ومن ذلك مثلاً أنه خلق للإنسان طعاماً طبيعياً يناسبه من الماء والنبات والحيوان، ولكن مع تقدم العلوم ظهرت على الساحة أطعمة مختلفة ببعض المواد المصنعة كالملونات (stains) والنكهات (flavours) كما ظهرت أطعمة مصنوعة كلها من مواد كيماوية، وقد بدأت تظهر بعض العوارض السلبية بسبب هذه المخالففة للطبيعة، وأصبحنا في كل يوم نقرأ تقارير طبية تحذر من أضرار هذه المخالففة، وتدعو للعودة إلى الطبيعة، كالعادية مثلاً لإرضاع الطفل من ثدي أمه بدلاً من تغذيته بالأطعمة المصنعة، وهي دعوة حكيمية لا شك فيها، لأن حليب الأم أنساب طبيعية الطفل من أي غذاء آخر، وكذلك سائر المخالففات للطبيعة، سواء في الطعام أو في غيره كالممارسات الجنسية المشادة التي تخالف فطرة البشر ومنها على سبيل المثال الملوّنات، والمسحاق، وجمام الحيوانات، وغير ذلك من أشكال المخالفات للطبيعة التي فطر الله - عز وجل - عليها خلقه!

وفي الواقع فإن البشر في عصرنا المراهن قد تمادوا كثيراً في مخالفتهم للطبيعة، في شتى الأنشطة والحقول، حتى بلغت هذه المخالففة حدّاً يهدد بکوارث عالمية، وقد سبق أن عرضنا جانباً من هذه القضية في حديث لنا عن البيئة، وعما ألم بها من تغيرات مصنوعة أشرت في عذريتها، ولوّثتها وأخرجتها عن طبيعتها التي خلقت عليها، وقد بدأ العلماء يحذرون من خطورة هذا التأثير، ويدعون لإعادة البيئة إلى طبيعتها الأولى حفاظاً على صحة الحياة في الأرض، وإن عندنا من نصوص الكتاب والسنّة وفعل السلف الصالح الكثير مما يدعو للمحافظة على عذرية الطبيعة والتعامل معها تعاملًا منضبطًا يستلزمها ويستفيد من خيراتها دون أن يمسها بسوء!.